

491634 - هل يقصر عمر الإنسان بسبب الذنوب، وهل يطول بالتوبة؟

السؤال

هل هناك ذنوب تقصّر عمر الإنسان؟ وهل الظلم يقصّر من عمر الإنسان حقيقة أم هو مجاز؟ وهل إذا تاب يقصّر الله تعالى عمره؟

الإجابة المفصلة

أولاً:

من المعلوم أن الذنوب والمعاصي لها تبعات وعقوبات، منها ما يكون معجلاً في الدنيا، ومنها ما يكون مؤجلاً إلى الآخرة؛ إلا أن يتتجاوز الله تعالى عن عبده.

والعقوبات الدنيوية قد تكون بالمصائب تصيب العبد في نفسه أو ماله أو غير ذلك.

قال الله تعالى:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) الشورى/30.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى:

"يُخْبِرُ تَعَالَى، أَنَّهُ مَا أَصَابَ الْعِبَادَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي أَبْدَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَفِيمَا يُحِبُّونَ وَيُكَوِّنُ عَزِيزًا عَلَيْهِمْ، إِلَّا بِسَبَبِ مَا قَدَّمَهُ أَيْدِيهِمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَأَنَّ مَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلِمُ الْعِبَادَ، وَلَكِنَّ أَنفُسَهُمْ يُظْلَمُونَ" انتهى من "تفسير السعدي" (ص 759).

والظلم من أخطر الذنوب التي قد تعجل لأجلها العقوبة الدنيوية.

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجَدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدْخُلُهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطْبِيَّةِ الرَّحِيمِ).

رواه أبو داود (4902)، والترمذني (2511)، وابن ماجه (4211)، وقال الترمذني:

"هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ".

وهلاك الأمم، وآجالها، ومدتها: كل ذلك مما يقدم الله تعالى أو يؤخره، يقدمها، فيهلكها بمعاصيها. أو يؤخره، فيمدّها ويمهّلها بطاعاتها.

كما في قول الله تعالى:

(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونَسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزِيرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) يومنس . 98/

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:

" والغرض: أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يومنس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا لديه. واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوا بهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نببيهم. فعندها رحمة الله، وكشف عنهم العذاب وأخرموا... " انتهى من. "تفسير ابن كثير" (4 / 297).

وقال الله تعالى:

(فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) الصافات/148.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

" ومن فوائدتها: أن الإيمان سبب لطول الحياة لقوله: (فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ) ولا شك أن الإيمان سبب لطول الحياة، لأن نوحًا قال لقومه: (يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤْخِرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمٍّ)، فبين لهم أنه إذا حصل منهم الإيمان والتوبة، غفر الله لهم، وأخرهم إلى أجل مسمى. وإن لم يفعلوا، أهلكهم الله " انتهى. "تفسير سورة الصافات" (ص 315).

وقال الله تعالى:

(وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْتَغِكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمٍّ وَيُؤْتِ كُلُّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلُّوا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) هود (3).

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى:

" قوله تعالى: (يُمْتَغِكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا) قال ابن عباس: يتفضل عليكم بالرزق والسعادة.

وقال ابن قتيبة: يُعَمِّرُكُمْ.

وأصل الإمتاع: الإطالة، يقال: أمتاع الله بك، ومتاع الله بك، إمتاعاً ومتاعاً، والشيء الطويل: ماتع، يقال: جبل ماتع، وقد متاع النهار: إذا تطاول" انتهى. "زاد المسير" (4 / 75).

وروى البخاري (5986) ومسلم (2557) عن أنس بن مالك، أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبَسِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُئْسِأَ لَهُ فِي أَثْرِهِ، فَلَيَصِلْ رَحْمَةً).

ولفظ: (أثراه): المراد بها أجله.

قال القاضي عياض رحمة الله تعالى:

" والننساً: التأخير. والأثر: الأجل. سمي بذلك لأنه تابع للحياة.

ومعنى التأخير هنا: في الأجل "انتهى." "اكمال المعلم" (8 / 21).

وقد ورد بلفظ "العمر" و"الأجل"، كما عند الإمام أحمد في "المسند" (21 / 93): عَنْ مَيْمُونِ بْنِ سَيَاهٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَّسَ بْنَ مَالِكَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمْرِهِ، وَأَنْ يُزَادَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلَيَبْرُرَ وَالذِّيْنِيَّةَ، وَلَيَصْلُ رَحْمَهُ).

وعند ابن حبان في صحيحه "الإحسان" (2 / 180 — 181): عَنْ أَبْنَ شَهَابٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَّسَ بْنَ مَالِكَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُئْسَأَ لَهُ فِي أَجْلِهِ وَيُبَسِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلَيَصْلُ رَحْمَهُ).

ويؤيد أن الأثر هنا بمعنى العمر ذاته، ما رواه الإمام أحمد في "المسند" (42 / 153)، قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمْدِ بْنُ عَبْدِ الْوَارِثِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مَهْزَمٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: (إِنَّهُ مَنْ أُغْطِيَ حَظًّا مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ أُغْطِيَ حَظًّا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَصَلَّةُ الرَّحْمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمَلُانِ الدُّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ).

وقال محققو المسند: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيوخين غير محمد بن مهزم، فمن رجال "التعجيل" وثقة ابن معين، وقال أبو حاتم: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في "الثقات" "انتهى".

وما رواه الترمذى (2139): عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ، عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا يَرُدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبُرُّ).

وقال الترمذى: "وهذا حديث حسن غريب من حديث سلمان" انتهى.

قال الشيخ الألباني رحمة الله تعالى:

"الحديث حسن كما قال الترمذى، بالشاهد من حديث ثوبان" انتهى. "السلسلة الصحيحة" (1 / 288).

وحدث ثوبان هذا رواه ابن ماجه (90)، والإمام أحمد في "المسند" (37 / 95)، وابن حبان في صحيحه "الإحسان" (3 / 153): عَنْ ثُوبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبُرُّ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ).

وقال محققو المسند: "حسن لغيره".

ثانياً:

استشكل طائفة من أهل العلم الزيادة في الأجل، ورأوا أن معنى النصوص السابقة في زيادة الأجل: زيادة بركته، فینتفع الطائع والبار بعمره مهما قصر، كمثل ما ينتفع به طويل العمر أو أفضل.

وحجتهم في هذا التفسير هو أن هناك نصوصا تنص على أن الآجال لا تؤخر.

قول الله تعالى:

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجْلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) الأعراف (34).

وقول الله تعالى:

(وَلَوْ يُؤَاخِذَ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ ذَآبَةٍ وَلَكِنْ يُؤْخِرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) النحل (61).

وكما عند الإمام مسلم (2663) عن عبد الله بن مسعود، قال: (قال أُم حبيبة روج النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم أمتغني بزوجي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد سألت الله لآجال مضربيه، وأ أيام معدودة، وأرزاق مفسومة لئن يعجل شيئا قبل حلته أو يؤخر شيئا عن حلته، وتوكثت سألت الله أئ يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيرا وأفضل).

قال النووي رحمه الله تعالى:

"(من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره، فليصل رحمة) ينسأ مهمون، أي: يؤخر.

والآخر: الأجل؛ لأنه تابع للحياة في أثرها.

وبسط الرزق: توسيعه وكترته، وقيل: البركة فيه.

وأما التأخير في الأجل ففيه سؤال مشهور؛ وهو أن الآجال والأرزاق مقدرة، لا تزيد ولا تنقص: (إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)؟

وأجاب العلماء بأجوبة، الصحيح منها: أن هذه الزيادة بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك ... "انتهى." شرح صحيح مسلم (16 / 114).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى:

"قال ابن التين: ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى: (إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)، والجمع بينهما من وجهين:

أحدهما: أن هذه الزيادة كنایة عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، وصيانته عن تضييعه في غير ذلك.

ومثل هذا ما جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من ماضى من الأمم، فأعطاه الله ليلة القدر.

وحاصله: أن صلة الرحم تكون سبباً للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية، فيبقى بعده الذكر الجميل، فكأنه لم يمت.

ومن جملة ما يحصل له من التوفيق: العلم الذي ينتفع به من بعده، والصدقة الجارية عليه، والخلف الصالح. وسيأتي مزيد لذلك في كتاب القدر إن شاء الله تعالى ... "انتهى." *فتح الباري* (10 / 416).

لكن يَرِد على ذلك أن البركة أيضاً مقدرة، ومكتوبٌ مقدارها للعبد قبل أن يخلق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

" وقد قال بعض الناس: إن المراد به البركة في العمر، بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير، قالوا: لأن الرزق والأجل مقداران مكتوبان.

فيقال لهؤلاء: تلك البركة، وهي الزيادة في العمل والنفع، هي أيضاً مقدرة مكتوبة، وتتناول لجميع الأشياء" انتهى. "مجموع الفتاوى" (490 / 14).

وقال القرافي رحمه الله تعالى:

" من العلماء من يقول: إنما ذلك بزيادة البركة فيما قدر في الأزل من الرزق والأجل، وأما نفس الأجل والرزق المقدرين فلا يقبلان الزيادة.

قلت: وهذا الجواب عندي ضعيف؛ بسبب أن البركة أيضاً من جملة المقدرات، فإن كان القدر مانعاً من الزيادة، فليمنع من البركة في العمر والرزق، كما منع من الزيادة فيهما، بل هذا الجواب يلزم منه مفسدتان:

إدحهنا: إيهام أن البركة خرجت عن القدر، فإن المجيب قد صرخ بأن تعلق القدر مانع، فحيث لا مانع، لا قدر، وهذا رديء جداً ... "انتهى من "الفروق" (1 / 339).

وأما ما ذكروه من الآيات السابقة: فإنها تحمل على أن الأجل لا يؤخر إذا حل الموت، وحان ساعته، التي هي ساعته، كما هو نص الآية: (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ).

وأما من لم يحن أجله، فلا تتناوله الآية.

قال الشيخ محمد بن علي بن آدم الإتيويبي رحمه الله تعالى:

"فإن قلت: فعلام يحمل ما تقدم من الآيات القاضية بأن الأجل لا يتقدم، ولا يتأخر، ومن ذلك قوله عز وجل: (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفِدُونَ)."

قلت: قد أجاب عن ذلك بعض السلف، وتبعه بعض الخلف، بأن هذه الآية مختصة بالأجل إذا حضر، فإنه لا يتقدم، ولا يتأخر عند حضوره، ويؤيد هذا أنها مقيدة بذلك، فإنه قال: (وَلَنْ يُؤْخَرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا)، وقوله سبحانه وتعالى: (إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ).

فقد أمكن الجمع بحمل هذه الآيات على هذا المعنى، فإذا حضر الأجل لا يتأخر، ولا يتقدم، وفي غير هذه الحالة، يجوز أن يؤخره الله بالدعاء، أو بصلة الرحم، أو بفعل الخير، ويجوز أن يقدمه لمن عمل شرًا، أو قطع ما أمر الله به أن يوصل، أو انتهك محارم الله سبحانه وتعالى.. "انتهى من "البحر المحيط" (40 / 313).

وأما حديث أم حبيبة رضي الله عنها، وما ورد فيه: (قَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ لِأَجَالِ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَئِنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ أَوْ يُؤْخِرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ).

فهذا محمول على الارشاد إلى الأنفع، لا على القطع بنفي نفع الدعاء في مثل هذه الأمور، فيكون المقصود أن الأجل مهما تأخر وطال العمر، فله في علم الله تعالى وقت يحل فيه، لن يتعداه، فلا يمكن الفرار منه؛ لأن الموت مكتوب على جميع الناس، بخلاف عذاب القبر، فالناس فيه منهم شقي وسعيد، فينبغي للعبد أن يدعو الله تعالى أن يدخله في زمرة السعداء الذين ينالهم نعيم القبر لا عذابه، ويكون هذا الحديث كقول الله تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعَنَا هُمْ سَبِيلٌ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) الشعراة/ 205 – 207.

وأثر الدعاء في طول العمر ثابت في نصوص عديدة.

فمن ذلك: ما ورد في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال الثبي صلى الله عليه وسلم: (لا يتمني أحدكم الموت من ضر أصابه، فإن كان لا بد فاعل، فليقل: اللهم أحبني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفيني إذا كانت الوفاة خيرا لي) رواه البخاري (5671) ومسلم (2680).

ثم إن حديث أم حبيبة فيه بيان لأثر الدعاء في النجاة من الشقاء بعذاب القبر، وهو أيضا مكتوب كحال الأجل والرزق.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ حَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمِرُ بِأَزْيَعِ كَلْمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِّيًّا أَوْ سَعِيدًا، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ...) رواه البخاري (3208)، ورواه مسلم (2643).

فيحمل حديث أم حبيبة على الارشاد للأنفع.

قال ابن الجوزي رحمة الله تعالى:

"فإن قيل: كيف ردّها عن سؤال، وعلل بالقدر، وأمرها بسؤال، وهو داخل في باب القدر أيضاً؟"

فالجواب: أن سؤال ما يجلب نفعاً في الآخرة، ويُظهر عبودية من السائل، أولى مما يجتلب به مجرد النفع في الدنيا، فأراد منها التشاغل بأمور الآخرة "انتهى من "كشف المشكل"(1 / 337).

وقال القرطبي رحمة الله تعالى:

"أرشدنا إلى ما هو الأولى والأفضل، كما نص عليه، ووجهه: أن الثاني أولى وأفضل؛ أنه قيام بعبادة الاستعاذه من عذاب النار والقبر، فإنه قد تبعَّدنا بها في غير ما حديث، ولم يتبعَّدنا بشيءٍ من القسم الذي دعْتَ هي به، فافتقرنا..." انتهى من "المفہوم" (6 / 681).

ثالثاً:

يتبيّن مما سبق: أن الزيادة في العمر بأفعال البر من توبة ودعاء وغيره، ونقصانه بأفعال الشر من ظلم وغيره؛ كل ذلك على وجه الحقيقة.

وتلخيص معناه:

أن الله تعالى قدر الأشياء، ومن ذلك الآجال وقدر أيضاً ما يتعلق بها من أسباب، مثل أن يقدر الله تعالى أن عمر هذا العبد يكون له مقدار معين إن فعل كذا، وينقص إن لم يفعل، أو العكس، وستر ذلك عن عبده، ويُسّر له العمل والاختبار في هذه الدار للاختبار، والله أعلم بما سيعمل العبد وماذا سيختار وكتبه.

قال إسماعيل الأصبهاني رحمة الله تعالى:

"(مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمُرِهِ وَيُزَادَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، فَلَيَبَرُّ وَالْدَّيْنَهُ)."

هذا حديث صحيح.

ويعارضه ما روی عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم:

(ثُمَّ يُؤْمِرُ الْمَلَكُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقُهُ، وَعَمَلُهُ - وَفِي روایة - وَأَجَلُهُ، وَشَقِّيُّ أَوْ سَعِيدُ).

وفي روایة حذيفة بن أسد:

(فَلَا يُزَادُ عَلَيْهِ وَلَا يُنَقْصُ).

والجمع بين الخبرين أن يقال: إن الله إذا أراد أن يخلق النسمة، جعل أجلها إن برت والديها كذا وكذا، وإن لم تبر والديها كذا وكذا دون ذلك. وإن عملت كذا حرمت كذا، وإن لم تعمله رزقت كذا، ويكون ذلك مما يكتب في الصحيفة التي لا يزيد على ما فيها ولا ينقص، ومثل ذلك: (لَا يَرُدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدُّعَاءُ).

يقال: إن أراد الله أن يخلق النسمة قال: إن كان منها الدعاء رد عنها كذا وكذا، وإن لم يكن منها الدعاء نزل بها كذا وكذا "انتهى من الترغيب والترهيب" (1 / 274 - 275).

وبمثل هذا قال قبله الطحاوي رحمة الله تعالى في "شرح مشكل الآثار" (8 / 82).

وقال القاضي عياض رحمة الله تعالى:

"وقيل: هذا على ما سبق به العلم والقدر؛ أنه إن وصل رحمة فأجله كذا، وإن لم يصل فكذا؛ وفي علم الله - تعالى - أنه لابد له من أحد الحالين، على ما سبق له في ألم الكتاب.

وهذا مثل ما سبق من السعادة والشقاوة، مع تكليف العمل والطاعة، ونفيه عن المعصية، وقد سبق له في ألم الكتاب ما سبق من سعادة أو شقاوة؛ ولذلك قال العامل: فلِمَ الْعَمَلُ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (أَغْمَلُوا، فَكُلُّ مُيَسِّرٍ لِمَا حُلِقَ لَهُ).

وهذا هو الوجه الصحيح في الحديث "انتهى من إكمال المعلم" (8 / 21).

الخلاصة:

لا شك أن الهلاك كالأمراض قد يكون بسبب الذنوب، كما أن الإفلاع عنها قد يمتع به الإنسان متاعاً حسناً إلى أجل مسمى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى:

"والعمر يطّول، والرزق يُبسط: بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح.

كما أن الهلاك والإغرار: استحقه قوم نوح بالكفر والتکذيب، وقد قال: (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْتَعَكُمْ مَثَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى) الآية، وقال: (أَنِ اغْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِي، يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤْخِزُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى)، وقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي عُمْرِهِ، فَلَيَصِلَّ رَجْمَهُ).

والله يعلم ما كان، وما لا يكون لو كان كيف يكون، والله أعلم "انتهى من مختصر الفتاوى المصرية" (1 / 386).

وقال الذهبي رحمة الله تعالى:

" وإن كان الأجل قد فرغ منه، فإن الدعاء بطول البقاء قد صحيحة.

دعا الرسول صلى الله عليه وسلم لخادمه أنس بطول العمر، والله يمحو ما يشاء ويثبت.

فقد يكون طول العمر في علم الله مشروطاً بدعاء مجاب، كما أن طيران العمر قد يكون بأسباب جعلها من جور وعسف، و(لَا يَرُدُّ
الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ)، والكتاب الأول: فلا يتغير انتهى من "سير أعلام النبلاء" (8 / 219).

والله أعلم.